العرب
الأربعاء 2021/02/03
السنة 43 العدد 11960

الناجون من انفجار بيروت يغرقون في ندوبهم النفسية

أزمات اللبنانيين تتناسل مع كورونا والضائقة الاقتصادية

تتناسل الأزمات على الشعب اللبناني، فبعدما عانوا من الحرب الأهلية ظلوا يعانون من الأزمات الاقتصادية المتلاحقة، ليتبعها انفجار مرفأ بيروت الذي خلف قتلى وضحايا بالآلاف، ما دفع بعضهم إلى الهجرة، وغرق البقية في أزماتهم النفسية التي لا يعرفون كيف يداوونها، في ظل انتشار وباء كورونا الذي حشرهم في المنازل.

أهالي بيروت على شفا الجنون

بيروت – رقدت جوانا داغر فاقدة الوعي وتنزف تحت الحطام المتراكم في شقتها بعد انفجار بيروت الذي حدث في أغسطس الماضي، إلى أن استطاعت أن تنجو بفضل شجاعة زوجها الذي أخرجها من تحت الحطام، وأيضاً بفضل لطف أحد الغرباء الذي نقلها إلى المستشفى في سيارته المحطمة، وبفضل شقيقاتها اللاتي ظللن بجوارها في المستشفى الذي كانت تعمه الفوضى في ذلك الوقت.

داغر لا تتذكر أي شيء مما حدث، حيث فقدت الأم لطفلين والبالغة من العمر 33 عاماً ذاكرتها لمدة شهرين بسبب الصدمة التي عانت منها جراء الانفجار.

وقالت داغر "لقد فقدت كل شيء يوم 4 أغسطس. فقدت منزلي، فقدت ذاكرتي، فقدت اثنين من أصدقائي. فقدت صحتي العقلية، وفقدت كل شيء".

وأثّر الانفجار على الصحة العقلية للناس الذين استطاعوا النجاة، وبدأت داغر تستعيد ذاكرتها بالتدريج، لكنها تعاني الآن من ألم من نوع آخر.

وعلى الرغم من أن جلسات العلاج النفسي تساعدها اليوم نوعا ما، إلا أنها تقول إنها "لم تعد كما كانت من قبل".

وتقول شقيقتها جيهان إن "جوانا في العادة شخصية هادئة ومستقلة، لكنها تعاني الآن من نوبات غضب، وتوتر، وانغلاق عاطفي، وأحيانا تصبح عدوانية، وهي علامات اضطراب ما بعد الصدمة، بحسب الأخصائيين النفسيين".

وأضافت جيهان "الأشهر الستة الماضية كانت معاناة بالنسبة إلينا، فعندما نرى أحد أحبائنا يعاني كثيرا، كلنا نعاني معه، ولا يمكننا فعل أي شيء".

وجاء هذا الانفجار ليكون واحدا من أبرز مسببات الضغوط التي يشعر بها اللبنانيون جراء الأزمات المتعددة، من الانهيار الاقتصادي غير المسبوق إلى وباء كورونا، إضافة إلى الشعور بالعجز بعد الاحتجاجات التي اندلعت ضد الفساد، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها.

وقالت ميا عطوي، أخصائية علم النفس ورئيسة منظمة "إمبريس" –وهي منظمة تعمل في مجال التوعية بالأمراض النفسية ودعم الصحة العقلية– "هناك مستويات عالية جدا من القلق الذي ينتشر بين اللبنانيين الذين أصيب معظمهم بالاكتئاب السريري".

وكثر الذهاب إلى عيادات الصحة النفسية، مما يجعل من الصعب تلقي عناية كافية، وخاصة أن العديد من الأخصائيين المؤهلين غادروا البلاد أو هم بصدد المغادرة.

ووسّعت منظمة "إمبريس" عيادتها بعد الانفجار، ومع ذلك لا تزال لديها قائمة انتظار تضم 60 شخصا.

وقدمت المنظمة الدعم لـ750 شخصًا منذ الانفجار، قالت عطوي إن "معظمهم يعانون من أعراض اضطراب ما بعد الانفجار والاكتئاب والقلق".

وعلى خط المساعدة، تلقت المنظمة منذ أغسطس حوالي 67 في المئة من المكالمات الهاتفية التي يجريها أشخاص يعانون من ضائقات عاطفية، و28 في المئة من الاتصالات التي ترد من أشخاص لديهم ميول انتحارية.

وخلّف الانفجار إصابات عقلية حتى لدى أولئك الذين لم يصابوا بجروح جسدية، وبأعجوبة لم تصب نجلاء فاضل (33 عاما) بأي خدش بعد أن حطم الانفجار زجاج منزلها، لكنه أصاب جليسة طفلها إصابات بالغة.

ومنذ أن نقلت جليسة طفلها الحامل بطفلها الثاني إلى المستشفى لأنها كانت تنزف أصبحت تعاني من الكوابيس.

وغالبًا ما تستيقظ فاضل، وينبض قلبها، وتعتقد أن الانفجار قد حدث مرة أخرى. تقول فاضل "أقفز عندما أسمع أي صوت وأبدأ بالبحث عن مخبأ".

وقالت إن "أسوأ ما في الأمر هو العواصف الرعدية وصوت الطائرات الحربية الإسرائيلية التي تخترق المجال الجوي اللبناني بانتظام وتطير على ارتفاع منخفض".

وأضافت "قبل بضع ليال، عندما كانت الطائرات تحلق فوق بيروت، كنت أنام في الممر بين الغرف. وبهذه الطريقة أنا في منتصف المسافة من غرفة أطفالي، (حيث) يمكنني حملهم بشكل أسرع".

وزارت فاضل معالجا نفسيا على مدى فترة من الزمن، لكن الكثير ممن يعانون من الكوابيس لا يحصلون على الرعاية.

قالت ثريا فريم، الرئيسة والمؤسّسة المشاركة لمنظمة "كيناكل دي لوميير" –وهي منظمة بدأت بعد الانفجار تقدم دعمًا مجانيا للمرضى النفسيين في بيروت– "هناك الكثير من الناس لا يهتمون بصحتهم العقلية، أو لا يعرفون ماذا يفعلون، ثم إن الناس يعانون من الفقر ويجدون صعوبة في تغطية نفقاتهم، وبالتالي لا يعتبرون الصحة العقلية أولوية".

وقالت سارة كوبلاند من أستراليا، حيث انتقلت بعد الانفجار إلى مدينة بيرث، إنها كانت تزور معالجين نفسيين للتعامل مع صدمة ما خسرته.

وفي الانفجار اخترقت شظية من الزجاج صدر ابنها إسحاق البالغ من العمر عامين، منهية حياته القصيرة. وقالت إن حياتها توقفت في ذلك اليوم، وأضافت "لا أتمنى لأي أم أن ترى الصورة الأخيرة لابني الصغير، إنه أمر محزن للغاية".

> بعض اللبنانيين لا يهتمون لصحتهم العقلية والنفسية، والبعض الآخر يعانون من الفقر فلا يعتبرون الصحة العقلية أولوية

وفي ذلك الوقت كانت كوبلاند تعمل لدى مفوضية الأمم المتحدة في بيروت، وعلى بعد آلاف الأميال من لبنان لا تزال الذكرى الحزينة تطاردها إلى الآن، وقالت "إن منظر الزجاج المكسور وصوته مازالا يسببان لي القلق. وأنا مستلقية على السرير في الليل، أسمع صوت الرياح على النوافذ وهذا يخيفني حقا، أتجمد، لأنه يذكرني بصوت الطنين الذي سمعته عندما اخترق الانفجار نوافذنا".

وأضافت أن إيثان (ابنها البالغ من العمر شهرين) يجعل لها هدفا في الحياة تعيش من أجله، لكن الألم لا يزال عميقا، "سماع صراخ الأطفال، حتى لو كان ذلك من باب المرح، يعيدني إلى المستشفى، إلى إسحاق والأطفال الذين يصرخون من (شدة) الألم".

وفي شقة مؤقتة خارج بيروت قررت جوانا داغر البقاء في لبنان على الرغم من مغادرة الآلاف من اللبنانيين، وقالت "أريد أن أكون قريبة ممن أحبهم ومن عائلتي، ولن أسمح لهؤلاء السياسيين بإخراجي من منزلي أو بلدي، وسأبقى هنا لأرى العدالة تتحقق على أرض الواقع".

ولكن مثل معظم الناجين من ذلك اليوم الرهيب، هناك خوف لا يتركها أبدا، "الخوف من فقدان من أحبهم أصبح (الآن) أقوى من أي وقت مضى".

«القشابية» دفء الرجال في الجزائر ورمز مقاومتهم للاستعمار

الجزائر – تعتلي "القشابية" كل شتاء صدارة الألبسة التراثية في الجزائر، ومن خصوصيتها مع تغير الأزمنة والأجيال، أنها ليست حكرا على الكبار في السن وحدهم، بل كذلك تلقى اهتمام الشباب. إذ في الكثير من المناطق لا يخلو منزل واحد من شخص لا يرتدي هذا اللباس التقليدي العريق، خاصة أنه عرف نوعا من التحديث، حيث حوّله بعض الحرفيين إلى شكل معطف.

ورغم أنّ القشابية لباس رجالي شتوي ينتشر بكثافة في المحافظات الشرقية، لكنه مصنوع على مراحل عديدة بأياد نسائية من وبر الجمال وصوف الأغنام.

وعادة ما تغزل النساء القشابية بصبر على المناسج الخشبية التقليدية، فيما باتت مؤخرا تصنع في معامل النسيج، كمدفأة للرجال في فصل الشتاء البارد.

وتبدأ مراحل حياكة القشابية بانتقاء وتنقية وغسل الوبر أو الصوف، ثم التجفيف والغزل لاستخراج خيوط النسيج، يليهما الحياكة والصباغة بين ألوان الأسود والأبيض والبني، مستعملين في ذلك أدوات تقليدية لم تتطور حتى يومنا هذا.

وتشكل القشابية بجانب البرنوس أشهر الألبسة التراثية للرجال، فيما يعد "الكراكو" و"الملايا" من أبرز الألبسة النسائية في الجزائر. وهي ألبسة مازالت تقاوم هجمات الموضة.

ومن الأمور التي تجعل الرجل الجزائري متمسكا بالقشابية رغم المعاطف العصرية التي تواكب الموضة، هي رمزيتها التاريخية، فعلاوة على الهمة والشموخ اللذين تمنحهما لمرتديها، ظلت القشابية اللباس المفضل للثوار في المدن والجبال والقرى، كما كانت مخبأ للأسلحة التي نفذت بها العمليات الفدائية إبّان الاستعمار الفرنسي للجزائر.

قالت فايزة رياش، الباحثة في التراث الجزائري، إنّ "القشابية جزء من الصناعة التقليدية النسيجية، التي كانت رائجة خلال الفترات القديمة والحضارات الإسلامية".

وأضافت، "صناعة القشابية ازدهرت في المناطق الصحراوية الرعوية بالجزائر، حيث برودة الطقس وانتشار رعاة الأغنام، ويوجد منها القصير والطويل".

بدوره، اعتبر الصحافي الجزائري المتخصص في الشأن الثقافي صالح سعودي، أنّ "القشابية لباس تراثي يرتديه الجزائريون من الطبقات الاجتماعية والفئات العمرية المختلفة، ويسجل حضوره بقوة في مواجهة موضة الأزياء التي تغزو البلاد".

وقال سعودي، "حتى الآن يظل التجار المتنقلين يفضلون ارتداء القشابية، لأنها تضمن الدفء وتقاوم البرد الشديد في فصل الشتاء".

حرفيّو القشابية يندثرون

وتابع، "كلّما خفّ وزنها ارتفع ثمنها، لذلك فإن أسعار القشابية تختلف حسب نوعية الوبر والصوف المستخدم في صناعتها، والذي يبلغ في بعض الأحيان 80 ألف دينار جزائري (حوالي 350 دولارا)".

من جانبه أكد طارق بن محمد، صاحب محل لبيع القشابية بمحافظة الجلفة (شمال) أنّ صناعة اللباس التراثي تعد من بين الحرف اليدوية التي تقوم بها النساء لاسيما المسنات في المنازل، واللواتي بدأ عددهن يقل وبدأت الحرفة تندثر.

وأضاف بن محمد، "الإقبال على شراء القشابية قليل هذا العام مقارنة بالأعوام الماضية، بسبب تأثير وباء كورونا على القدرة الشرائية للجزائريين".

وأوضح أن أسعار القشابية المصنوعة من الصوف تتروح بين 20 و30 ألف دينار (بين 110 و180 دولارا)، فيما تتروح أسعار المصنوعة من وبر الجمال بين 40 و150 ألف دينار (بين 200 و800 دولار)، أما أفضل الأنواع فهي المصنوعة من وبر "العقيقة" (صغار الجمال) ويصل سعر القشابية منها إلى 150 ألف دينار (حوالي 800 دولار).

يشدد الكثير من الحرفيين وصانعي الألبسة التقليدية عموما والقشابية خصوصا على عدة مشاكل تعتريهم في مهنتهم، خاصة في ما يتعلق بارتفاع أسعار المواد الأولية إضافة إلى أزمة التسويق حتى في المدن الكبرى، حيث من الصعب أن تجد محلا مخصصا لها.

> القشابية الصينية المقلدة تنتشر في الأسواق بأسعار فتحت شهية الجزائريين، الذين عجزوا عن اقتناء القشابية المحلية غالية الثمن

وتتعرض القشابية الجزائرية منذ سنوات إلى منافسة شرسة فرضتها عليها السلع الصينية المقلدة، حيث عمدت إلى طرح أنواع أقل جودة وبأسعار فتحت شهية الجزائريين الذين عجزوا عن اقتناء المحلية التي صارت حكرا على الأثرياء.

يقول بن محمد، إن القشابية الصينية مصنوعة من مجرد قطن وليس من وبر حقيقي، لذلك يبقى سعرها رخيصا ويقبل عليها الفقراء وحتى الشباب الذين ينسقونها مع بنطلونات الجينز والأحذية الرياضية.

ويتفق التجار في أسواق الجلفة، على أن القشابية المحلية بدأت تختفي من الأسواق لسببين، أولا نظرا لغلاء سعرها، وثانيا بسبب خياطتها التقليدية وعدم مواكبتها للعصر، من حيث الابتكار في التصميم. كما يعيق ثقلها الحركة السريعة التي فرضها نمط الحياة العصري.

ويحاول الحرفيون اليوم الإبداع في تصميم القشابية وأشكالها، فصنعوا قشابية على شكل معطف لاقت رواجا وانتشارا كبيرين خصوصا بين الشباب، بل صنعوا منها لباسا نسائيا أقدمت عليه الشابات خاصة المغتربات منهن. كما أصبح الحرفيون يمزجون بين الوبر المحلي والوبر المستورد من آسيا لتخفيف تكاليف الصناعة وبالتالي التخفيض في الأسعار.